

إعجاز الأسلوب الخطابي في القرآن الكريم

☆ الدكتور صاحب اسلام

1. The Stylistics of Holy Qur'an is way beyond human potential and capabilities. Its diction, semantics and phraseology is unique which is not found in any of man's writings.
2. The range of its stylistics is such that it impresses all and sundry simultaneously. Thus our Holy Qur'an exceeds in rhetoric and stylistics.
3. The stylistics of Qur'an is such that it holds a universal appeal for all times to come despite of the drastic evolutionary change in human society over a time period. The Holy Qur'an has not lost its relevance and freshness uptil now and neither shall it do so till the Day of Resurrection.
4. The Holy Qur'an addresses people belonging to all strata of society from a layman to a universe don. Each person may interpret and appreciate the miraculous Ayah's of Qur'an according to their own caliber and understanding. It offers straight direct teachings to the commoners whereas a scholar may unfold and marvel at its depth and delicate intricacies.
5. The miracles of the previous prophets were sensual in nature. They could be perceived through our senses. Yet the miracle of our Holy Prophet i.e. Holy Qur'an holds its dynamic appeal rationally and logically. It shall remain so till all times to come.
6. The salient features of the stylistics of Holy Qur'an are as follows: Its simultaneous brevity as well as comprehensive nature; its universal appeal to all and sundry; its precise summation yet in other places its elaborate detailing; its unique super human stylistics; its rhythm and variety phonetically and semantically; its recurrence and repeated mentions of incidents and topics; its

المبحث الأول

تعريف الإعجاز وأنواعه

سنذكر في هذا المبحث ثلاثة أشياء:

١. الإعجاز لغة.

٢. الإعجاز اصطلاحاً.

٣. أنواع الإعجاز.

المطلب الأول: الإعجاز لغة:

الإعجاز في اللغة مأخوذ من العجز ويأتي على عدة معان:

١. القصور عن فعل الشيء: وهو ضدّ الحزم والقدرة، جاء في لسان العرب:

”الإعجاز من العجز: نقيض الحزم، عَجَزَ عن الأمر يعجز عَجْزاً فيهما؛ ورجل عَجِز وعَجَزَ أي عاجز. وامرأة عاجز: عاجزة عن الشيء. ويقال أَعْجَزْتُ فلاناً إذا ألفتته عاجزاً^(١).”

٢. الضعف: يقول في لسان العرب: والعَجْزُ: الضعف، تقول: عَجَزْتُ عن كذا

أَعْجَزَ وفي حديث عمر: ولا تلتثوا بدار معجزة أي لا تقيموا ببلدة يعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش^(٢).

٣. عدم القدرة: ومنه المعجزة، قال في لسان العرب: والمَعْجَزة، بفتح الجيم

وكسرهما، مفعلة من العَجَز: عدم القدرة^(٤)؛ وفي الحديث كل شيء بقدر حتى العَجْزُ والكَيْسُ^(٥).

٤. العجز عن الضراب: جاء في لسان العرب: وفعل عَجِيز: عاجز عن

الضراب كَعَجِيسٍ: قال ابن دريد: فعل عجيز وعجيس إذا عَجَزَ عن الضراب: قال

الأزهري وقال أبو عبيد في باب العنين: هو العجير، بالراء، الذي لا يأتي النساء؛ قال الأزهري: وهذا هو الصحيح، وقال الجوهري: العجيز الذي لا يأتي النساء، بالزاي والراء جميعاً. وأَعَجَرَ. وَعَجَّرَ الرجلُ وعَاجَرَ: ذهب فلم يُوصَلْ إليه^(٦).

٥. التثبيط: قال في مقاييس اللغة: والتَّعْجِيزُ: التَّثْبِيطُ، وكذلك إذا نسبته إلى العَجَز- وعَجَّرَ أو عَاجَز: ذهب فلم يُوصَلْ إليه^(٧). وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ﴾^(٨)

٦. مؤخر الشيء: قال في مختار الصحاح: العَجْرُ بضم الجيم مؤخر الشيء؛ يذكر ويؤنث وهو للرجل والمرأة جميعاً وجمعه أَعْجَاز وبابه ضرب^(٩).

٧. صارت المرأة عجوزاً: أَعَجَزَتِ المرأةُ صارت عَجُوزاً وبابه دخل وكذا عَجَزْتُ تَعْجِيزاً وعَجِرْتُ من باب طرب^(١٠).

المطلب الثاني: الإعجاز اصطلاحاً:

وهو في الشرع يعم كل خارقة للعادة وهذا عند المتقدمين من العلماء وعند المتأخرين فيجعلون الإعجاز والمعجزة للنبي والكرامة للولي وجماعهما الأمر الخارق للعادة^(١١).

قال الإمام جلال الدين السيوطي: "إعلم أن المعجزة أمر خارق للعادة، مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة"^(١٢)، فهي إذن كل أمر يظهر بخلاف العادة على يد مدّعي النبوة عند تحدي المنكرين، على وجه يعجزهم عن الإتيان بمثله.

المطلب الثالث: شروط الإعجاز:

قد وضع العلماء للمعجزة شروطاً التي أشار إليها الإمام السيوطي عند تعريف المعجزة كما مر وهي:

١- أن تكون أمراً خارقاً للعادة.

٢- أن تكون مقرونة بالتحدي.

٣- وسالمة عن المعارضة.

المطلب الرابع: أقسام الإعجاز:

اقتصر بعض العلماء إعجاز القرآن على بلاغته وفصاحته، ويقولون إن إعجاز القرآن منحصر في الفصاحة والبلاغة وتقول طائفة أخرى: إن القرآن معجز فيما قرّره في تشريعه، وتبيينه للحلال والحرام وسائر الأحكام، ورأى آخرون أن من إعجاز القرآن المناسبات العجيبة بين سورته وآياته من فواتح السور وخواتيمها. ورأى البعض أن القرآن معجز فيما تضمنه من العلوم والحكم البليغة على اختلافها. حتى ن بعضهم ذكر أربعين وجهاً من أنواع الإعجاز. فعجائب القرآن الكريم لا تنتهي لأن القرآن معجزة تخاطب كل عصر ويبقى عطاؤه دائماً لا ينقطع، ويجد فيه كل جيل من العلماء حاجتهم والدليل على هذا قوله تعالى ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مدداً﴾^(١٣). وفي هذا يقول الزرقاني: "لقد اشتمل القرآن على آلاف من المعجزات، لا معجزة واحدة فحسب. فلم يذهب بذهاب الأيام، ولم يمت يموت الرسول صلى الله عليه وسلم، بل هو قائم في فم الدنيا يجابه كل مكذب، ويتحدّى كل منكر، ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه من هداية وتشريعات ونظم تكفل السعادة لبني إنسان"^(١٤).

يقول الشهيد سيّد قطب رحمه الله تعالى: إن كل من له دراية بتذوق أساليب الأداء، وكل من له خبرة بتصورات البشر للوجود وللأشياء وكُلّ من له خبرة بالنظم والمناهج والنظريات النفسية أو الاجتماعية التي ينشئها البشر... لا

يخالجه شك في أن ما جاء به القرآن في هذه المجالات كلها شيء آخر ليس من مادة يصنعه البشر، والمراء في هذا لا ينشأ إلا عن جهالة لا تميز، أو غرض يلبس الحق بالباطل^(١٥).

ذكر الدكتور عمر الملا حويش أن سبب اختلاف العلماء في معرفة وجوه الإعجاز في القرآن الكريم هو أن القرآن معجزة ينفرد العقل بمخاطبتها وإدراكها، ولما كان الأمر كذلك، فلم يكن فهم هذه المعجزة على درجة واحدة عند جميع الناس، وإنما كل يفهم منها قدر استطاعته وقوة إدراكه^(١٦).

فرعاية للإختصار يمكننا أن نكتفي بالقسمين الرئيسين للإعجاز وهما:

أولاً: الإعجاز الحسي:

الإعجاز الحسي أو المعجزات الحسية هي كل ما أوتيّه الأنبياء من آيات قبل نزول القرآن، كمنافقة صالح، وعصا موسى، وإحياء الموتى بإذن الله على يدي عيسى، عليهم الصلاة والسلام. وسُمّيت هذه المعجزات بالحسية لأنها انقرضت بانقراض الأجيال المعاصرة لهؤلاء الأنبياء، فلم يشاهدها بالابصار إلا من حضرها. قال جلال الدين السيوطي: "وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلا دتهم وقلة بصيرتهم"^(١٧).

ثانياً: الإعجاز العقلي:

أمّا الإعجاز العقلي أو المعجزة العقلية فهي متمثلة في القرآن الكريم، لأنها مستمرة إلى يوم القيامة، فلا يمرّ عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء يدلّ على صحّة دعواه، فيبقى معجزة مشاهدة بعين العقل لكل عصر ولكل جيل.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: وهذا التحدي (التحدي بالقرآن

الكريم) ظل قائماً في حياة الرسول ﷺ وبعدها، وما يزال قائماً إلى يومنا هذا وهو حجة لا سبيل إلى المماحكة فيها^(١٨).

ويقول النبي ﷺ (ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً)^(١٩). فالحديث يدل على أن أكثرية أمة محمد ﷺ هو أن معجزته ستستمر إلى يوم القيامة وسيؤمن بها البشر عبر القرون وهكذا يدل الحديث على أنه خاتم الأنبياء وأنه لا نبي بعده.

ونحن سنكتب بالإختصار عن إعجاز الأسلوب الخطابي في القرآن الكريم.

المبحث الأول

إعجاز الأسلوب الخطابي في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم كتاب سماوي نزل بواسطة الروح القدس على النبي الكريم، فخطب به كل إنسان وكل ذي روح من البشر، فهو منزل من إله محيط بالسموات والأرض، مشرف على الأولين والآخرين، خبير بأغوار الضمائر وأسرار النفوس، يتحدث إلى الناس تحدث السيد الحقيقي إلى عباده الذين خلقهم بقدرته ورباهم بنعمته، ومع ذلك فعند قراءته يجد الإنسان أنه يتحدث بما هو قريب من طبيعته، متجاوب مع فطرته ومتلطف في أقناعاته لينشرح صدره لليقين به وللإعتقاد بمضامينه، فهذا هو الإعجاز البياني أو الإعجاز في أسلوب الخطاب الذي شاهده الكثيرون واعترف به المؤمنون والمكذبون، فها هو الوليد بن المغيرة من زعماء الكفر في مكة المكرمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستمع إلى ما يتلو من هذا القرآن فلما أنصت وتدبر، كأنما رق له قلبه، فبلغ ذلك أباجهل فأتاه وقال له: يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك ما لا يعطوك

إِيَّاهُ، فَإِنَّكَ أَتَيْتَ مُحَمَّدًا وَمَلْتَ إِلَى دِينِهِ... قَالَ الْوَلِيدُ: "مُسْتَنْكَرًا عَرَضَ الْمَالِ عَلَيْهِ - لَقَدْ عَلِمْتَ قَرِيشَ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا، قَالَ: فَقُلْ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَكَ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّكَ مَكْذُوبٌ لَهُ وَكَارِهِ، قَالَ: وَمَاذَا أَقُولُ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ مِنِّي بِالشَّعْرِ، وَلَا بِرَجْزِهِ وَلَا بِقَصْدِهِ وَلَا بِأَشْعَارِ اللَّحْنِ، وَإِنَّهُ لَمُنِيرٌ أَعْلَاهُ، مُشْرِقٌ أَسْفَلُهُ وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَلَا يَعْلى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَحْطُمُ مَا تَحْتَهُ" (٢٠). وَأَيْضًا نَقَلَ ابْنُ كَثِيرٍ فِي سِيرَتِهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: اجْتَمَعَ قَرِيشٌ يَوْمًا فَقَالُوا: انْظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بِالسَّحَرِ وَالْكُهَانَةِ وَالشَّعْرِ فَلِيَّاتُ هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتْ أَمْرَنَا وَعَابَ دِينَنَا فَلْيَكَلِّمَهُ وَلْيَنْظُرْ مَاذَا يَرِدُ عَلَيْهِ.

فَقَالُوا: مَا نَعْلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عَتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ فَقَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ. فَأَتَاهُ عَتْبَةُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ. فَقَالَ: أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمَطْلَبِ؟ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ.

فَقَالَ: فَإِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ هَؤُلَاءَ خَيْرٌ مِنْكَ فَقَدْ عَبْدُوا الْآلِهَةَ الَّتِي عَبْتُ وَإِنْ كُنْتُ تَزْعُمُ أَنَّكَ خَيْرٌ مِنْهُمْ فَتَكَلِّمْ حَتَّى نَسْمَعَ قَوْلَكَ إِنَّ وَاللَّهِ مَا رَأَيْنَا سَخْلَةً قَطُّ أَشْأَمَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْكَ فَارْقَتِ جَمَاعَتَنَا وَشَتَّتْ أَمْرَنَا وَعَبْتِ دِينَنَا وَفَضَحْتَنَا فِي الْعَرَبِ حَتَّى لَقَدْ طَارَ فِيهِمْ أَنَّ فِي قَرِيشٍ سَاحِرًا وَأَنَّ فِي قَرِيشٍ كَاهِنًا وَاللَّهِ مَا نَنْتَظِرُ إِلَّا مِثْلَ صَيْحَةِ الْحَبْلِيِّ أَنْ يَقُومَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ بِالسَّيُوفِ حَتَّى نَنْتَفَانِي أَيْهَا الرَّجُلِ كَانَ إِنَّمَا بِكَ الْحَاجَةُ جَمْعَنَا لَكَ مَالًا حَتَّى تَكُونَ أَغْنَى قَرِيشَ رَجُلًا وَإِنْ كَانَ بِكَ الْبَاءَةُ فَاخْتَرِ أَيَّ نِسَاءِ قَرِيشٍ شِئْتَ فَلْتَزُوجْكَ عَشْرًا.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَرِغْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ - حَمْدُكَ تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابُ فَصَّلْتَ آيَاتِهِ قَرَأْنَا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. إِلَى أَنْ بَلَغَ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَثَمُودَ﴾ (٢١).

فقال عتبة: حسبك ما عندك غير هذا؟ قال: (لا)

فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ قال: ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمونه إلا كلمته.

قالوا: فهل أجابك؟ فقال: نعم ثم قال: لا والذي نصبها بنية ما فهمت شيئاً مما قال غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود.

قالوا: ويلك! يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟

قال: لا والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة.

وقد رواه البيهقي وغيره عن الحاكم عن الأصم عن عباس الدوروي عن يحيى بن معين عن محمد بن فضيل عن الأجلح به وفيه كلام.

وزاد: وإن كنت إنما بك رياسة عقدنا ألو يتنا لك فكنت رأساً ما بقيت.

وعنده أنه لما قال: ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد

و ثمود﴾.

أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه ولم يخرج إلى أهله

واحتبس عنهم.

فقال أبوجهل: والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك

أمره فإن كان بك حاجة جمعنا لك أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد فغضب

وأقسم بالله لا يكلم محمداً أبداً وقال: لقد علمتم أنني من أكثر قريش مالا ولكني

أتيته وقص عليهم القصة فأجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة

قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ ﴿فإن

أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود﴾^(٢٢) فأمسكت بفيه

وناشدته الرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن

ينزل عليكم العذاب^(٢٣) والتي تبين لنا مدى تأثير الخطاب القرآني في إيمان

الوفود التي جاءت أو استمعت إليه في إيمانهم والإقرار به..

فهذا هو الإعجاز البياني لقرآن الذي يقول عنه الأصفهاني في تفسيره: **إعلم أن إعجاز القرآن الكريم ذكر من وجهين: أحدهما إعجاز يتعلق بنفسه والثاني بصرف الناس عن معارضته فالأول أن يتعلق بفصاحته وبلاغته أو بمعناه، أما الإعجاز المتعلق بفصاحته وبلاغته فلا يتعلق بعنصره، الذي هو اللفظ والمعني، فإن ألفاظه ألفاظهم... ولا بمعانيه فإن كثيراً منها موجود في الكتب المتقدمة، قال تعالى: (وإنه لفي زبر الأولين) (٢٤) ثم يقول في آخر كلامه: فظهر من هذا أن الإعجاز بالقرآن يتعلق بالنظم المخصوص وبيان كون النظم معجزاً يتوقف علة بيان نظم الكلام، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ما عداه (٢٥).**

يقول الخطابي: **إنّ في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه الا شاذ من أحاديهم، وذلك صنيعة بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً، إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها من عادت مرتاعة قد عراها الواجدان والقلب وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها (٢٦).**

ويقول الأستاذ مناع القطان في كتابه مباحث في علوم القرآن: **(والقرآن الذي عجز العرب عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم، ألفاظاً وحروفاً، تركيباً وأسلوباً، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه، وجرس آياته، ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان، في الجمل**

الإسمية والفعلية... وفي النفي والإثبات، وفي الذكر والحذف وفي التعريف والتنكير وفي التقديم والتأخير وفي الحقيقة والمجاز وفي الإطناب والإيجاز وفي العموم والخصوص وفي الإطلاق والتقييد وفي النص والفحوى... وهلم جرا ولكن القرآن في هذا ونظائره بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر (٢٧).

فنتحدث باختصار عن تعريف الأسلوب لغة واصطلاحاً، ثم نذكر مزايا الأداء القرآني وخصائصه الخطابية:

المطلب الأول: الأسلوب في اللغة:

والأسلوب لغة جاء في عدة معان منها ما يلي:

١. الأسلوبُ بضم الهمزة الطريقُ والفنُ ويقال: وهو على أسلوب من أساليب القوم أي على طريق من طرقهم (٢٨).
٢. والأسلوب: الطريق وعنق الأسد والشموخ في الأنف. وانسلب: أسرع في السير جداً. وتسلَّبت: احدثت على زوجها. والسُّلبة بالضم: الجُردة.

المطلب الثاني: الأسلوب في الاصطلاح:

الأسلوب في الاصطلاح هو الطريقة الكلامية التي يسلكها المتكلم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه أو هو المذهب الكلامي الذي انفرد به المتكلم في تأدية معانيه ومقاصده من كلامه (٣٠).

المطلب الثالث: معنى أسلوب القرآن:

انفرد القرآن الكريم بأسلوب خاص به وذلك لأن لكل كلام إلهي أو بشري أسلوبه الخاص به، فأساليب المتكلمين وطرائقهم في عرض كلامهم من

شعر أو نثر تتعدد بتعدد أشخاصهم بل تعدد في الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التي يتناولها والفنون التي يعالجها ففي ضوء هذه يمكننا أن نعرف أسلوب القرآن كالتالي:

هو عبارة عن الطريقة التي انفرد بها القرآن الكريم في تأليف كلامه واختيار ألفاظه^(٣١).

المطلب الرابع: مزايا الخطاب القرآني:

ذكر الأستاذ الدكتور عدنان محمد زرزور ثلاث مزايا للأداء القرآني وهي كالتالي:

المزية الأولى:

لأداء القرآني طابع بارز في القدرة على استحضار المشاهد، والتعبير المواجه كما لو كان المشاهد حاضراً. بطريقة ليست معودة على الإطلاق في كلام البشر؟ ولا يملك الأداء البشري تقليدها. ولنذكر مثالا لذلك في قوله تعالى: ﴿وجاوزنا بيني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾. وإلى مناهي قصة تحكي ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه في مشهد حاضر وهو: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين. فاليوم ننجيكَ ببذنبك لتكون لمن خلفك آية﴾ ثم يعود الأداء للعقيب على المشهد الحاضر ﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون﴾^(٣٢)

المزية الثانية: عن قضايا ومدلولات ضخمة بعبارات قصيرة:

ونعني بهذا أن الأداء القرآني يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات

ضخمة في حين يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض وذلك بأوسع مدلول، وأدق تعبير وأجمله وأخصره بحيث لا يجور الجمال على الدقة، ولا الدقة على الجمال^(٣٥).

المطلب الخامس: خصائص الخطاب القرآني:

ذكر العلماء خصائص الأسلوب القرآني والتي بلغ بها القرآن الكريم درجة الإعجاز، فنكتفي بذكر بعض الخصائص التي أشاروا إليها بشيء من الإجمال:

الميزة الأولى: القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى:

يقول الدكتور محمد زر زور في كتابه علوم القرآن (إن كل من يجمع في أسلوبه بين هاتين النهايتين لا يقوى على العدل بينهما، فالذي يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً)^(٣٦) ثم يقول: (فإذا سرك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغایتان من أن يحيف على تمامها بغير فترة ولا انقطاع، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقدير، يؤدي لك من كل معنى صورة نقية وافية، "نقية" لا يشوبها شيء مما هو غريب عنها "وافية" لا يشدّ عنها شيء من عناصرها الأصلية ولو احققها الكمالية. كل ذلك في أوجز وأنقاه^(٣٧).

الميزة الثانية: إرضائه العامة والخاصة:

ومعنى هذا أن القرآن الكريم إذا قرأته على العامة أو قرئ عليهم أحسوا جلالته وذاقوا حلاوته وفهموا منه على قدر استعدادهم ما يرضي عقولهم

وعواطفهم وكذلك الخاصة إذا قرؤوه أحسوا جلالته وذاقوا حلاوته وفهموا منه أكثر مما يفهم العامة ورأوا أنهم بين يدي كلام ليس كلام لا في إشراق ديباجته ولا في امتلائه وثروته ولا كذلك كلام البشر فإنه إن أَرْضَى الخاصة والأذكياء لجنوحه إلى التجوز والإغراب والإشارة لم يَرْضَ العامة لأنهم لا يفهمونه وإن أَرْضَى العامة لجنوحه إلى التصريح والحقائق العارية فهو متعة العامة والخاصة على السواء، ميسر لكل من أراد قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾

الميزة الثالثة: إقناع العقل وإمتاع العاطفة:

قال الدكتور عدنان محمد زرزور: "الكلام البليغ والبيان الكامل هو الذي يكافئ في الإنسان قوتي التفكير والوجدان ويؤتي النفس الإنسانية حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا والمعهود من العلماء والحكماء من جهة وكلام الأدباء والشعراء من جهة أخرى أن كلا منهما يغلو في جانب ويقصر في جانب آخر، فالحكام إنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك وأما الشعراء فإنما يسعون إلى استثارة وجدانك وتحريك أوتار الشعور من نفسك" (٤٠).

ولم ير الناس أسلوباً واحداً يجمع هاذين الطرفين معاً إلا القرآن الكريم، يقول الدكتور زرزور "كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً أو كما يسري الروح في الجسد والماء في العود الأخضر لأن هذا ليس من سنن الله في النفس الإنسانية! ولكنه شأن رب العالمين فهو الذي لا يشغله شأن عن شأن وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يغيبان، ألا ترى ذلك في كتابه حيث توجهت؟ ألا تراه في قصصه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من حكمه وعبره؟ ألا ترى في كل

علومه من التشويق والترقيق والتحذير والتنفير وما إلى ذلك^(٤١) حيث أحاط بكل جوانبه؟ وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾^(٤٢) وقال تعالى ﴿إنه لقول فصل، وما هو بالهزل- إنهم يكيّدون كيّداً وأكيد كيّداً فمهّل الكافرين أمهلهم رويداً﴾^(٤٣)

الميزة الرابعة: البيان والإجمال:

إذا عمد الناس إلى تحديد أغراضهم لم تتسع لتأويل، وإذا أجملوا ذهبوا إلى الإبهام والإلباس، أو اللغوي الذي لا يفيد ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد إلا في القرآن الكريم وفي هذا يقول الدكتور الدراز رحمه الله تعالى: وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف والملاسة والإكام والخلو من كل غريب عن العرض ما يتسابق به مغزاها إلى دون كد خاطر ولا استعادة حديث كأنك لا تسمع كلاماً ولغات، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة. وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خيراً ووفقت على معناه وهذا ولو رجعت إليه كرة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد غير الذي سبق إلى فهمك كأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع منه شعاعاً، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان كلها، فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع. ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت... وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منهم ما يسر له، بل ترى محيطاً مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد والأجيال^(٤٤).

الميزة الخامسة: أسلوب القرآن خارج عن أسلوب معروف بين الناس:

أسلوب القرآن يجري على نسق بديع خارج عن المعروف من نظام جميع كلام العرب، ويقوم في طريقته التعبيرية على أساس مباين للمألوف من طرائقهم، بيان ذلك أن جميع الفنون التعبيرية عند العرب لا تعدو أن تكون نظاماً أو نثراً، وللنظم أعاريض، وأوزان محددة معروفة، وللنثر طرائق من السجع، والإرسال وغيرهما مبينة ومعروفة، والقرآن ليس على أعاريض الشعر في رجزه ولا في قصيده، وليس على سنن النثر المعروف في إرساله ولا في تسجيعة وتجده في تركيب حروفه تنسيقاً عجيباً فمن أجل ذلك تحير العرب في أمره، إذ عرضوه على موازين الشعر فوجدوه غير خاضع لأحكامه، وقارنوه بفنون النثر فوجدوا غير لاحق بالمعود من طائفه فكان أن انتهى الكافرون منهم إلى أنه السحر، واستيقن المنصفون منهم بأنه تنزيل من رب العالمين. وإليك بعض الأمثلة التي توضح هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿خـمـ. تنزيل من الرحمن الرحيم. كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون. بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون. وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقرْ ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون. قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنمّا إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين﴾ (٤٥).

وهذه الآيات بتأليفها العجيب، ونظمها البديع حينما سمعها عتبة بن أبي ربيعة وكان من أساطين البيان استولت على أحاسيسه، ومشاعره، وطارت بلبه، ووقف في ذهول، وحيرة، ثم عبر عن حيرته وذهوله بقوله: ﴿والله لقد سمعت من محمد قولاً ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة... والله ليكونن لقوله الذي سمعته نبأ عظيم﴾ (٤٦).

وإليك مثال آخر ﴿والشمس وضحاها، والقمر إذا تلاها، والنهار إذا

جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والارض وما طحاها، ونفس وما
سواها، فאלهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها، كذبت
ثمود بطغواها، إذا انبعث أشقاها، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها،
فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقنها.

تأمل هذه الآيات، وكلماتها، وكيف صيغت هذه الصياغة العجيبة؟ وكيف
تألفت كلماتها وتأنقت جملها؟ وهذه الحقيقة توجد في سائر القرآن ومن أجل
ذلك عجزوا عن الإتيان بأقصر سورة مثله.

الميزة السادسة: الاحتفاظ على نسق واحد في جمال اللفظ وعمق المعنى:

إن أسلوب القرآن يظل جارياً على نسق واحد من السمو في جمال
اللفظ، وعمق المعنى ودقة الصياغة وروعة التعبير، ورغم تنقله بين مواضع
مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والحجاج والوعد والوعيد وتلك حقيقة
شاقة، بل لقد ظلت مستحيلة على الزمن لدى فحول علماء العربية والبيان.

يقول الدكتور رمضان البوطي: "مهما رأيت بليغاً كاملاً البلاغة والبيان،
فإنه لا يمكن أن يتصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد
من البيان الرفيع الذي يملكه، بل يختلف كلامه حسب اختلاف المواضع التي
يطرقها، فربما جاء بالغاية ووقف دونها، غير أنك لا تجد هذا التفاوت في كتاب
الله تعالى، فأنت تقرأ آيات منه في الوصف، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في
القصة، وتقرأ بعد ذلك مقطعاً في التشريع وأحكام الحلال والحرام، فلم تجد
الصياغة خلال ذلك إلا في أوج رفيع عجيب من الإشراق والبيان، ودونك فاقراً
من هذا الكتاب المبين متنقلاً بين مختلف معانيه، وموضوعاته لتتأكد من صدق

ما أقول^(٤٩).

ويزيد لنا رمضان البوطي في حديثه عن روح التركيب في الأسلوب الخطابي في القرآن: "لا ترى غير صورة واحدة من الكمال، وإن اختلفت أجزاؤها في جهات التركيب وموضع التأليف وألوان التصوير وأغراض الكلام"^(٥٠).

ويقول الرافعي: في معرض حديثه عن "روح التركيب" في أسلوب القرآن: "وهذه الروح لم تعرف قط في كلام عربي غير القرآن، وبها انفرد نظمه، وخرج مما يطيقه الناس، ولو لها لم يكن بحيث هو، كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ نراه ينظر في التركيب إلى نظم كلمة، وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم، إعجازه في جملة التركيب، وأن العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب: كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم، وضرب الأمثال إلى نحوها مما يقدر عليه.

وأيضاً يقول الرافعي: "على أننا لم نعرف بليغاً من البلغاء تعاطي الكلام في باب الشرع وتقرير النظر، وتبيين الأحكام ونصب الأدلة وإقامة الأصول والاحتجاج لها والرد على خلافها إلا جاء بكلام نازل عن طبقة كلامه في غير هذه الأبواب، وأنت قد تصيب له في غيرها اللفظ الحر والأسلوب الرائع والصنعة المحكمة والبيان العجيب، والمعرض الحسن فإذا صرت إلى ضروب من تلك المعاني، وقعت ثمة على شيء كثير من اللفظ المستنكره، والمعنى المستغلق، والسياق المضطرب والأسلوب المتهافت والعبارة المبتذلة، وعلى النشاط متخاذلاً، والوثيقة واهنة"^(٥١).

الميزة السابعة: مراعاة أفهام البشر في الخطاب:

إن معاني القرآن الكريم مصاغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم

على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمנתهم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم-

خذ آية من كتاب الله مما يتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول، ثم اقرأها على مسامع خليط من الناس يتفاوتون في المدارك، والثقافة، فستجد أن الآية تعطي كلامهم معناها بقدر ما يفهم، وأن كلا منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه-

وفي القرآن الكثير من هذا وذاك لنعرض أمثلة منه:

من القبيل الأول قوله تعالى: "تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمرأ منيراً"^(٥٢) فهذا تصف كلا من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح قريب يفهمه الناس كلهم، ولها عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولها جذور بعيدة يفهمها الباحثون والمتخصصون-

فالعامي من العرب يفهم منها أن كلا من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض، وإنما غاير في التعبير عنه بالنسبة لكل منهما تنويعاً للفظ، وهو معنى صحيح تدل عليه الآية، ولمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجتمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجاً، والقمر يبعث بضياء لحرارة فيه فلذلك سماه منيراً^(٥٣) -

الميزة الثامنة: التكرار في القرآن المجيد:

من هذه الظاهرة نوعان في كتاب الله تعالى:

أحدهما: تكرار بعض الألفاظ أو الجمل-

ثانيهما: تكرار بعض المعاني كالقصص، والأخبار-

فالنوع الأول: يأتي على وجه التوكيد، ثم ينطوي بعد ذلك على نُكْتٍ

بلاغية، كالتهويل، والإنذار والتجسيم والتصوير، وللتكرار أثر بالغ في تحقيق هذه الأغراض البلاغية في الكلام، ومن أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿الحاقة، ما الحاقة، وما أدراك ما الحاقة، كذبت ثمود وعاد بالقارعة﴾^(٥٤) وقوله تعالى: ﴿سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر﴾^(٥٥) ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد. أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾^(٥٦)

والنوع الثاني: وهو تكرار بعض القصص والأخبار يأتي لتحقيق غرضين هامين:

الأول: إنها حقائق ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالريقة التي تألفها، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب، ولقد أشار القرآن إلى هذا الغرض بقوله: "وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً"^(٥٧).

الثاني: إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة، وبأساليب مختلفة تفصيلاً وإجمالاً، الكلام في ذلك أن يتجلى إعجازه، ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو للحقاق بشأنه، إذ من المعلوم أن هذا الكتاب إنما تنزل لإقناع العقلاء، من الناس بأنه ليس كلام بشر، ولإلزامهم بالشرعية التي فيه، فلا بد فيه من الوسائل التي تفى بتحقيق الوسيلة كلا الأمرين.

ومن هنا كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر في أسلوب واحد من اللفظ، ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوباً جديداً من الأسلوب، وطريقة التصوير والعرض، بل لابد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو

القصة ولنضرب لك مثلاً على هذا الذي نقول: بقصة موسى عليه السلام إذ أنها أشد القصص في القرآن الكريم تكراراً، فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة على هذا التكرار (٥٨).

وردت هذه القصة في حوالي ثلاثين موضعاً، ولكنها في كل موضع تلبس أسلوباً جديداً تخرج إخراجاً جديداً يناسب السياق الذي وردت فيه، وتهدف إلى هدف خاص لم يذكر في مكان آخر، حتى لكأننا أمام قصة جديدة لم يسمع بها من قبل.

الميزة التاسعة: عدم التعهد بالتنسيق والتبويب المعروف:

لا يوجد في القرآن ما يوجد في عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب المواضيع، من يقرأ هذا الكتاب المبين لا يجد فيه ما يجدها في عامة المؤلفات والكتب الأخرى من التنسيق والتبويب حسب المواضيع، وتصنيف البحوث مستقلة عن بعضها، وإنما يجد عامة مواضيعه وأبحاثه لاحقة ببعضها دونما فاصل بينهما، وقد يجدها متداخلة في بعضها في كثير من السور والآيات.

والحقيقة أن الأسلوب في القرآن الكريم، إنما هي مظهر من مظاهر تفرد، واستقلاله عن كل ما هو مألوف ومعروف من طرائق البحث والتأليف (٥٩).

الميزة العاشرة: براعته في تصريف القول وثروته في أفانين الكلام:

ومعنى هذا أنه يورد المعنى الواحد بألفاظ وبطرق مختلفة بمقدرة فائقة خارقة تنقطع في حليتها أنفاس الموهوبين من الفصحاء والبلغاء ولسنا هنا بسبيل الاستيعاب والاستقراء ولكنها أمثلة تهديك ونماذج تكفيك. منها تعبيره عن طلب الفعل من المخاطبين بالوجوه الآتية.

الإتيان بصريح مادة الأمر نحو قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُوا الْأُمُنْتَ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ (الف. ٥٩).

والأخبار بأن الفعل مكتوب على المكلفين نحو ﴿كَتَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (ب. ٥٩).

والإخبار بكونه على الناس نحو ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (ج. ٥٩).

والإخبار عن المكلفين بالفعل المطلوب منه نحو ﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (٦٠) أي مطلوب منهم أن يتربصن.

المطلب الثالث: مؤلفات الخطاب القرآني وأسلوب الإعجاز فيها:

يتألف الخطاب القرآني من كلمات وجمل يتخاطب بها الناس عامة إلا أنه في ذلك يتضمن وجها من الإعجاز، فهناك إعجاز في مفرداته يلمسها القارئ للقرآن الكريم والمدبر في كلماتها وهناك إعجاز في جملة وصياغتها يجذب القارئ ويتحدى المنكر، وتميز كل من المفردات القرآنية وجملها بميزات يمكننا أن نجملها فيما يأتي:

أولاً: المفردات القرآنية:

إذا تأملت في الكلمات التي تتألف منها الجمل القرآنية رأيتها تمتاز بميزات ثلاثة رئيسية هي:

١. جمال وقعها في السمع.
٢. اتساقها الكامل مع المعنى.

٣. اتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات.

وقد نجد في تعابير بعض الأدباء والبلغاء كالجاحظ والمتنبي كلمات تتصف ببعض هذه الميزات الثلاثة أما أن تجتمع كلها معاً، وبصورة مطردة لا تتخلف أو تشذ فذلك مما لم يتوافر إلا في القرآن الكريم. وإليك بعض الأمثلة القرآنية التي توضح هذه الظاهرة وتجليها:

انظر إلى قوله تعالى في وصف كل من الليل والصبح: ﴿والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس﴾^(٢١) ألا تشم رائحة المعنى واضحاً من كل هاتين الكلمتين: عسعس، وتنفس؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث في خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة؟ وهل في مقدورك أن تصور إقبال الليل، وتمدده في الآفاق المترامية بكلمة أدق وأدل من "عسعس" وهل تستطيع أن تصور انفلات الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من "تنفس".

اقرأ قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(٢٢)

وادرس الأداء الفني الذي قامت به لفظة "اثَّاقَلْتُمْ" بكل ما تكونت بهما حروف، ومن صورة ترتيب هذه الحروف، ومن حركة التشديد على الحرف اللثوي "الثاء" والمد بعده، ثم مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقة، ثم التهاس المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان، ويخرج صوتها من الأنف، ألا تجد نظام الحروف، وصورة أداء الكلمة ذاتها أوحى إليك بالمعنى، قبل أن يرد عليك المعنى من جهة المعاجم؟ ألا تلاحظ في خيالك ذلك الجسم المتثاقل، يرفعه الرافعون في جهد فيسقط في أيديهم في ثقل؟ ألا تحس أن البطء في تلفظ

الكلمة ذاتها يوحى بالحركة البطيئة التي تكون من المثاقل؟
جرب أن تبدل المفردة القرآنية، وتحل محلها لفظة "تثاقلتم" ألا تحس
أن شيئاً من الخفة والسرعة، بل والنشاط أوحى به "اثاقلتم" بسبب رصف
حروفها، وزوال الشدة، وسبق التاء قبل الثاء، إذاً فالبلاغة تتم في استعمال
"اثاقلتم" للمعنى المراد، ولا تكون في "تثاقلتم".

ثانياً: الجملة القرآنية وصياغتها:

إن دراسة الجملة القرآنية تتصل اتصالاً مباشراً بدراسة المفردة
القرآنية لأن هذه أساس الجملة، ومنها تركيبها، وإذا كان علماء البلاغة يجعلون
البلاغة درجات، فإنهم مقرون دون جدل أن صياغة العبارة القرآنية في الطرف
الأعلى من البلاغة الذي هو الإعجاز ذاته. ولإعجاز فيها وجوه كثيرة.
فمنها: ما تجده من التلاؤم والاتساق الكاملين بين كلماتها، وبين ملاحق
حركاتها، وسكناتها، فالجملة في القرآن تجدها دائماً مؤلفة من كلمات وحروف،
وأصواب يستريح لتألفها السمع والصوت والمنطق، ويتكون من تضامها نسق
جميل ينطوي على إيقاع رائع، ما كان ليتم لو نقصت من الجملة كلمة أو حرف أو
اختلف ترتيب ما بينها بشكل من الأشكال.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر، وفجرنا الأرض
عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾ (٦٣) وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة
منها، ثم دق نظرك، وتأمل تألف الحروف الرخوة من الشديدة والمهموسة
والمجهورة وغيرها، ثم حاول التمعن في تأليف وتعاطف الحركات والسكنات
والممدود اللاحقة ببعضها، فإنك إذا تأملت في ذلك، علمت أن هذه الجملة
القرآنية. إنما صبت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما

قدر تقديرًا يعلم اللطيف الخبير وهيئات للمقاييس البشرية أن تضبط الكلام هذه القوالب الدقيقة^(١٣).

ومنها: إنك تجد الجملة القرآنية تدل بأقصر عبارة على أوسع معنى تام متكامل لا يكاد الإنسان يستطيع التعبير عنه إلا بأسطر وجمل كثيرة دون أن تجد فيه اختصاراً مخلأً، أو ضعفاً في الأدلة، اقرأ قوله تعالى: ﴿خذ العفو، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾^(١٥)

ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن في أخذ العفو صلة القاطعين والصفح عن الظلمين.

واقراً قوله تعالى مخاطباً آدم عليه السلام: ﴿إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنت لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾^(١٦) ثم تأمل كيف جمع الله بهذا الكلام أصول معاش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس، ومأوى.

واقراً قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنا رآدوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾^(١٧) وتأمل كيف جمع هذه الآية الكريمة بين أمرين ونهيين وخيرين وبشارتين أما الأمران فهما: "أرضعيه، وألقيه في اليم"، وأما النهيان فهما "لا تخافي"، و"لا تحزني".

وأما الخبران فهما "أوحينا" و"خفت" وأما البشارتان فهما "إنا رآدوه إليك" و"جاعلوه من المرسلين".

وتأمل سورة "الكوثر" وهي أقصر سورة في القرآن إذ هي ثلاث آيات قصار كيف تضمنت، على قلة آياتها وكثرة معانيها، الثاني: الإخبار عن "الوليد بن المغيرة" وكان عند نزولها ذا مال وولد ثم أهلك الله سبحانه ماله وولده،

وانقطع نسله (٢٨).

ومنها: إخراج المعنى المجرد في ظهر الأمر الحسي الملموس، ثم بث الروح والحركة في هذا المظهر نفسه.

ومكمن الإعجاز في ذلك، أن الألفاظ ليست إلا حروفاً جامدة ذات دلالة لغوية على ما أنبط بها من المعاني، فمن العسير جداً أن تصبح هذه الألفاظ وسيلة لصب المعاني الكفرية المجردة في قوالب من الشخوص والأجرام والمحسوسات، تتحرك في داخل كأنها قصة تمر أحداثها على مسرح يفيض بالحياة والحركة المشاهدة الملموسة. استمع إلى القرآن الكريم وهو يصور لك قيام الكون على أساس من النظام الرتيب والتنسيق البديع الذي لا يختلف، ولا يلحقه الفساد، فيقول ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ الْأَمْرُ﴾ (٢٩).

إنه يصور لك هذا المعنى في مظهر من الحركة المحسوسة الدائرة بين عينيك، وكأنها أمام آلات تتحرك بسرعة دائبة في نظام مستمر يعيها وتصورها الشعور والخيال (٤٠).

الخاتمة:

وختاماً للبحث أود أن أخص القول في إعجاز الأسلوب الخطابي في القرآن الكريم الذي تحدثنا عن معناه ومزاياه والخصائص التي يحظى بها ومؤلفاتها التي يتركب منها هذا الخطاب المعجز، وذلك كنتائج من الخوص في هذا الموضوع، وهي كالتالي.

١. إن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من وجوه الإعجاز، معجزة خالدة، فلم

يذهب بذهاب الآيات ولم يمت بموت الرسول، بل هو قام يتحدى المنكرين ويدعو أمم العالم جمعاء إلى ما فيه هداية الإسلام وسعادة بني الإنسان، واقتضت حكمة الله تعالى أن تبقى بجانب الإسلام تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة، ومما كتب له الخلود هو إعجاز الأسلوب الخطابي الذي لم يندرس بمرور الآيات ولم يفقد حيويته وتأثيره القوي على عقل الإنسان وعاطفته، وما زال القرآن الكريم يحرك الجماهير المؤمنة وينير عقولهم ويحرك نفوسهم ومشاعرهم بهذا الأسلوب الخلاب والخطاب المتمتع، الذي عجز البشرية عن الإتيان بمثله.

٢- إن القرآن الكريم هو دين البشر كافة، فهو يخاطبهم بمختلف قطاعاتهم ومستوياتهم إلى يوم القيامة. فالتقدم التقني والحضاري الذي انبهر به العقول وانخدع به النفوس، لم يستطع أن ينازع القرآن الكريم في الأسلوب الذي يحظى به، بل قدم له المزيد من الشواهد التي تنادي بأعلى صوتها بأنه كتاب الله تعالى المعجز، حيث إن التقدم العلمي الذي يراهن على التخصصات العلمية في المجالات المختلفة، أثبت أن القرآن الكريم هو الخطاب الوحيد الذي يمكنه أن يخاطب أهل التخصصات العلمية المختلفة وهو الأسلوب المنفرد الذي يمكنه أن يجمع المتخصصين في المجالات المختلفة على مائدته وأن يقدم لهم ما يرتوي به عطشهم العلمي.

٣- إن المتأمل في نظم القرآن الكريم يجد أن جميع ما يتصرف فيه من وجوه الإعجاز هي لا تزال على قمته في حسن النظم وبديع التأليف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا ولا إسفاف فيه إلى الرتبة الدنيا، فهي شهادة أخرى على أن القرآن الكريم على نهاية البلاغة وغاية البراعة.

٤- ومما يشتمل عليه القرآن الكريم من الإعجاز في أسلوبه الخطابي هو أن الآيات القصيرة والطويلة منها تحتوى على حد واحد من الإعجاز. وأن ما يعاد

ذكره من القصة الواحدة تراه تشتمل على مثال آخر للإعجاز حيث تراه متناسقا، متناسبا لا يختلف ولا يتفاوت، بخلاف ما يجري عند الناس حيث يتفاوت كلامهم عند إعادة ذكر القصة الواحدة تفاوتاً بينا ويختلف اختلافاً كبيراً. قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ (٧١).

بالإضافة إلى أن هذه ٨ البراعة في الإعجاز توجد في القرآن الكريم على هذا الطول وهذا القدر، حيث إنما تنسب إلى الحكماء كلمات معدودة وألفاظ قليلة وإلى الشعراء قصائد محصورة، ومع ذلك تجد فيها اختلافاً في النظم واختلافاً بيناً، بالإضافة إلى التكلف والتعسف.

٥. إن القرآن في أسلوبه الخطابي أتى بأمر لطيف آخر حيث إن معانيه مستحدثة ومبتكرة، فتخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع كان أطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المتكرر.

٦. إن المزايا التي يحتوي عليها القرآن الكريم من القدرة على استحضار المشاهد كأنها رأي عين، والتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة بعبارات قصيرة تفي بالغرض احتواء النص الواحد لمدلولات متنوعة ومتناسقة فهي مزايا لا يمكن أن يحتوي عليها كتاب، غير كتاب الله تعالى الذي خلق النفوس وعلم بتفاصيلها وأودع فيها العلوم والحكم.

٧. إن خصائص الأسلوب الخطابي التي تحدثنا عنها، فهي غيض من فض ولا زال المضممار فسيحاً لمن يتعب جواده فيه ليكشف المزيد من الخصائص ويحصل على غرر من الفوائد والنكت التي تستلذ بها النفوس وتستيقن بها العقول وتتمتع بها العواطف، لترتع في مرعى القرآن الخصب.

هذه الكلمات حول إعجاز القرآن الكريم في أسلوبه الخطابي فنسأل الله تعالى أن يهدينا لمرشد الأمور وأن يوفقنا لعزائم الأعمال وأن يفتح علينا أبواب الخير والفلاح إنّه ولي ذلك وولي التوفيق.

الهوامش

- ١- لسان العرب لابن منظور الأفريقي المصري، ج ٥، ص ٣٦٩، دار صادر بيروت الطبعة الأولى.
- ٢- كنز العمال، ج ١٥، ص ٨١٦، حديث رقم ٤٢٠٣٤، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٩م.
- ٣- لسان العرب، ج ٥، ص ٣٦٩.
- ٤- لسان العرب، ج ٥، ص ٣٦٩.
- ٥- أخرجه مسلم، ج ٤، ص ٢٠٤٥، رقم الحديث: ٢٦٥٥، ط: دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.
- ٦- لسان العرب، ج ٥، ص ٣٦٩.
- ٧- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ج ٤، ص ٢٣٢، ط: دار المعرفة.
- ٨- سورة سبأ رقم الآية: ٥.
- ٩- مختار الصحاح، ص ٤٦٧، ط: مكتبة لبنان ناشرون، بيروت الطبعة طبعة جديدة، ١٤١٥-١٩٩٥.
- ١٠- نفس المرجع.
- ١١- شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٠٩، بتصرف، ط: مكتبة الغرباء.
- ١٢- الإتقان في علوم القرآن، ج ٣، ص ٣، ط: منشورات رضي - بيدار - عزيزي، إيران.

- ١٣- الكهف: ١٠٩
- ١٤- مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، ج ٢، ص ٢٤٢، ط: دار الفكر، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٦ تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
- ١٥- تفسير في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، ج ١، ص ٤٩، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٠ء.
- ١٦- إجاز القرآن وعلم المعاني للدكتور عمر ملاحويش، ص ١٣٥، مكتبة الفلاح الكويت.
- ١٧- نفس المرجع.
- ١٨- تفسير في ظلال القرآن الكريم، ج ١، ص ٤٨
- ١٩- رواه البخاري، ج ٤، ص ١٥٠٩، رقم الحديث: ٤٦٩٦، ط: دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧ء.
- ٢٠- نظرات في القرآن الكريم لمحمد الغزالي، ص ١٤٥
- ٢١- سورة فصلت: ١ - ١٣
- ٢٢- نفس السورة والآية.
- ٢٣- سيرة ابن كثير، ج ١، ص ٥٠١، دار الفكر، بيروت.
- ٢٤- سورة الشعراء: ١٩٦
- ٢٥- القرآن الحكيم إجازته وبلاغته وعلومه للدكتورة صالحة عبد الحكيم شرف الدين، ص ٧١، ٧٢، دار الكتب العربية والطباعة النشر، الهند.
- ٢٦- المرجع السابق ٧٣، ٧٤
- ٢٧- مباحث في علوم القرآن للشيخ مناع القطان، ص ٢٦٦، طب
- ٢٨- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي لفيومي، ج ١، ص ٢٨٤، المكتبة العلمية، بيروت.

- ٢٩- تاج العروس، ج ١، ص ٥٧٠، ط المطبعة الخيرية مصر تاريخ، ١٣٠٦هـ.
- ٣٠- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، ص ٢٦٦.
- ٣١- نفس المرجع.
- ٣٢- يونس: ٩٠-٩٢.
- ٣٣- علوم القرآن لزرزور، ص ٢٥٦-٢٥٧، بتصرف طبع المكتب الإسلامي.
- ٣٤- نفس المرجع، ص ٢٥٧.
- ٣٥- نفس المرجع، ٢٥٨ بتصرف.
- ٣٦- نفس المرجع، ص ٢٥٨-٢٥٩.
- ٣٧- المرجع السابق.
- ٣٨- مناهل العرفان، ج ٢، ص ٢٢٣.
- ٣٩- سورة القمر: ١٧.
- ٤٠- علوم القرآن لزرزور، ص ٢٦١.
- ٤١- نفس المرجع بتصرف يسير.
- ٤٢- سورة الزمر: ٢٣.
- ٤٣- سورة الطارق: ١٣-١٧.
- ٤٤- علوم القرآن مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه، لكتور عدنان محمد زرزور بتصرف ٢٦٢.
- ٤٥- فصلت: ١-٦.
- ٤٦- البداية والنهاية، ج ٣، ص ٦٤، مكتبة المعارف، بيروت.
- ٤٧- سورة الشمس: ١-١١.

- ٤٨- إعجاز القرآن للرافعي، ص ٢٧٥
- ٤٩- موقع: [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com) نقلا عن: روائع القرآن: للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي-
- ٥٠- نفس المرجع نقلاً عن: إعجاز القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي-
- ٥١- موقع: [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com)
- ٥٢- سورة الفرقان: ٦١
- ٥٣- [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com)
- ٥٤- سورة الحاقة: ١-٤
- ٥٥- سورة المدثر ٢٦-٢٨
- ٥٦- سورة الرعد: ٥
- ٥٧- سورة طه: ١١٣
- ٥٨- موقع: [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com)
- ٥٩- أنظر لمزيد من المعلومات: الفوز الكبير في أصول التفسير للإمام الجليل المعروف بشاه ولي الله الدهلوي^٢، ص ٦١، اسلامي كتب خانه.
- ٥٩ الف- سورة النساء: ٥٨ .
- ٥٩ ب- سورة البقرة: ١٨٣
- ٥٩ ج- سورة آل عمران: ٩٧
- ٦٠- سورة البقرة: ٢٢٨
- ٦١- سورة التكاوير: ١٧-١٨
- ٦٢- سورة التوبة: ٣٨
- ٦٣- سورة القمر: ١١-١٢

٦٤. موقع: [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com)
٦٥. سورة الأعراف: ١٩٩
٦٦. سورة طه: ١١٨-١١٩
٦٧. سورة القصص: ٧
٦٨. موقع: [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com)
٦٩. سورة الأعراف: ٥٤
٧٠. نقلا عن موقع: [Http://www.al-iajaz.com](http://www.al-iajaz.com)
٧١. سورة النساء: ٨٢

قائمة المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. إعجاز القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، طبع دار الفكر بيروت.
٣. إعجاز القرآن للرافعي طبع دار الفكر، بيروت.
٤. إعجاز القرآن وعلم المعاني، الدكتور عمر الملاحويش طبع مكتبة الفلاح الكويت.
٥. الإتقان في علوم القرآن الكريم لجلال الدين السيوطي، طبع منشورات رضي بيدار عزيزي - إيران سنة ١٣٦٧ هـ.
٦. البداية والنهاية لابن كثير طبع مكتبة المعارف - بيروت
٧. تاج العروس للزبيدي، ط - المطبعة الخيرية - مصر قرية جاملة تاريخ الطبع، ١٣٠٦ هـ.
٨. سيرة ابن كثير، للحافظ ابن كثير طبع دار الفكر، بيروت.
٩. صحيح البخاري للإمام محمد بن اسماعيل البخاري، دار ابن كثير،

اليمامه بيروت.

١٠. صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي بيروت، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي.

١١. الفوز الكبير في أصول التفسير للشاه ولي الله الدهلوي.

١٢. القرآن الحكيم إجازة وبلاغته وعلومه للدكتورة صالحة عبد الحكيم

شرف الدين، دار الكتب العربية والطباعة والنشر، دولة الكويت.

١٣. تفسير في ظلال القرآن الكريم، للشهيد سيد قطب رحمه الله، دار الشروق

١٤. روائع القرآن، للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، دار الشروق.

١٥. شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي، ط - مكتبة الغرباء.

١٦. لسان العرب باب العين لابن منظور الأفريقي، دار صادر بيروت

الطبعة الأولى.

١٧. مختار الصحاح، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، الطبعة الجديدة،

١٤٥-١٩٩٥م.

١٨. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، للفيومي طبع

المكتبة العلمية، بيروت.

١٩. مناهل العرفان في علوم القرآن، لعبد العظيم الزرقاني، طبع دار الفكر

بيروت الطبعة الأولى.

٢٠. نظرات في القرآن، لمحمد الغزالي، دار الكتب الحديثة بيروت،

الطبعة الخامسة.

٢١. علوم القرآن للدكتور عدنان محمد زرزور، طبع المكتب

الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠١هـ.

٢٢. مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطاع طبع مؤسسة

الرسالة، بيروت سنة ١٤٠٧هـ.

٢٣. موقع: <http://www.al-aijaz.com>

٢٤. معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، مكتبة الإسلامي حوزة علمية، قم.

٢٥. كنز العمال، ط، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٩م.